

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللَّهُمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا، اللَّهُمَّ علمنا ما ينفعنا وزدنا علماً، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً.

أيها الأخوة الكرام..

مر معنا بالأمس شيء من الكلام حول حديث معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ».

وهو حديثٌ مُخرج في «الصحيحين» وغيرهما، وهذا الحديث العظيم كما مر معنا بالأمس يدلُّ دلالةً واضحةً على مكانة العلم وعظيم فضله وشرف أهله وعظيم مكانتهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعَدَّ لأهله عظيم الثواب وكريم المآب.

قوله: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا» جاءت «خَيْرًا» في هذا السياق منكرةً منونةً وفي ذلك دلالةٌ على عظم ثواب هؤلاء، وكثرة ثوابهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ وما لهم على ذلك من الخير العاجل والآجل.

وعرفنا بالأمس ما ذكره أهل العلم من أَنَّ المُراد بالفقه في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هو الفقه المستلزم للعمل، هو الفقه المستلزم للعمل؛ لأنَّ العمل مقصود العلم، وإنما يُطلب العلم للعمل، وإلا فإنَّ العلم يكون عارياً عند صاحبه تذهب عنه دون أن ينتفع بها، ودون أن يستفيد منها، ولهذا فإنَّ العلم مقصوده العمل، يطلب لأجل العمل، والتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

والله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق للعلم والعمل معاً لا للعلم بدون العمل ولا للعمل بدون العلم، كما يدلُّ لذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق]، وفي الآية الأخرى قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥١﴾ [الذاريات].

ففي إحدى الآيتين ذكر جلّ وعلا أنه خلق الخلق والسّموات والأرض ليعلموا أنه جلّ وعلا على كلّ شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، وهذا فيه أنّ مقصود الخلق العلم. والآية الثانية قال فيها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦ ﴿﴾ وهذا فيه أنّ مقصود الخلق العمل والعبادة والتقرب إلى الله ﷻ.

ولهذا قال أهل العلم رحمهم الله: إنّ التوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأوجدوا لتحقيقه له جانبان:

* جانب علمي.

* وجانب عملي.

وكلّ منهما مطلوب، ولا يستقيم توحيد عبدٍ إلا بهما، ولا يكون موحدًا إلا بالعلم والعمل، إلا بالعلم والإيمان والإقرار والإثبات لكل ما أمر الله ﷻ عباده بالإيمان والإقرار به، وبالعمل بالتعبّد لله ﷻ وبطاعته سُبْحَانَهُ بفعل أمره، وترك ما نهى عنه ﷻ.

وقد انقسم النَّاس من حيث تحقيقهم للعلم والعمل الذي هو مقصود الخلق إلى أقسام ثلاثة، ولعظم شأن هذه أو معرفة هذه الأقسام الثلاثة فإنّها تتكرّر مع المسلم مرّات كثيرة في أيّامه ولياليه في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٢ ﴿[الفاتحة]، فذكر جلّ وعلا أقسامًا ثلاثة:

• قسّمًا أنعم الله ﷻ عليهم.

• وضالّين.

• ومغضوبٍ عليهم.

فهذه أقسام الناس:

* قسمٌ منعمٌ عليه.

* وقسمٌ مغضوبٌ عليهم.

* وقسمٌ ضالون.

وقد أمرنا أن ندعو الله ﷻ أن يهدينا صراط المنعم عليهم، وأن يعيذنا من صراط المغضوب عليهم والضالين، وندعو بهذه الدعوة دعاءً متكرّرًا على وجه الوجوب والفرض سبع عشرة مرّة في اليوم والليلة في الصلاة المكتوبة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٢ ﴿

﴿٧﴾ [الفاتحة].

والمنعم عليهم هم الذين جمعوا بين العلم والعمل، العلم النافع والعمل الصالح فهم مُعتنون بعبادة الله وعبادتهم لله ﷻ وفق ما شرع الله، وعبادتهم لله وفق ما شرع الله، ولا يمكن أن تتأتى لعباد الله ﷻ بما شرع إلا بالعلم النافع المستمد من كتاب الله جلّ وعلا وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه. والمغضوب عليهم هم الذين عندهم علم لا يعملون به؛ كما قال جلّ وعلا عن اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، ومعنى ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها.

والضالون هم الذين يعملون ويجتهدون ويجهدون في الأعمال ولكن بلا علم، يعبدون الله ﷻ بالضلال وبالأهواء وبالباطل، دون تعويل على شرعه ﷻ وما دعا عباده إلى التقرب إليه به. والله ﷻ لا يقبل طريقاً إليه وسبيلاً لنيل مرضاته -جل وعلا- إلا سبيل المنعم عليهم الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] والهدى هو العلم النافع، والدّين الحق هو العمل الصالح، فهذا هو الذي يرضاه الله ﷻ، وهو الذي شرّعه لعباده -سبحانه- وخلقهم ﷻ لأجله.

ومن لم يكن عنده علم فهو ضال.

ومن لم يكن عنده عمل فهو غاوي.

وقد قال الله سبحانه في الثناء على نبيه ﷺ وفي بيان كمال علمه وعمله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١]، ونفي الضلال عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيه إثبات تمام العلم، ونفي الغواية فيه إثبات تمام العمل؛ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [١] فنفي الضلال فيه إثبات العلم، ونفي الغواية فيه إثبات العمل.

فالضال هو الذي لا علم له، والغاوي هو الذي لا عمل له إلا الأعمال المنحرفة الزائغة.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في بيان مكانة الخلفاء الراشدين من بعده صلوات الله وسلامه عليه مُثْنِيًا عليهم بكمال العلم والعمل: «عليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعَضُوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل مُحدثة بدعة» فوصفهم بالراشدين المهديين «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» والراشد من صلح عمله، والمهدي من صلح علمه،

فَأَتْنِي عَلَيْهِمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِالْأَمْرَيْنِ مَعًا؛ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

ولهذا فإن قول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» ليس المراد به مجرد الاستكثار من العلم والحفظ لنصوصه والمذاكرة لمسائله والجلوس في حلقة؛ وإنما المراد بذلك الفقه المُستلزم للعمل بحيث تكون همّة المتعلّم أن يتبسّر في دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ليعبده وليتقرب إليه ﷺ بما شرع، لا أن تكون همّته مجرد توسّع معارفه، وزيادة اطلاعه، وكثرة محفوظاته، وتفنّنه في مسائل العلم ونحو ذلك، وإنما تكون همّته في طلبه للعلم وتحصيله له، أن يرفع الجهل عن نفسه، وأن يصلح بذلك عمله وتقربه لربه ﷺ؛ فيكون بذلك صلح في نفسه؛ ثم ليدعو الناس إلى هذا الخير الذي هداه الله ﷺ له ووفقه إليه، وجمعت هذه المعاني في سورة العصر ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

من لم يكن من أهل هذه الصفات المذكورة في هذه السورة فهو خاسر؛ لأن الله ﷻ لم يستثن من الخسران إلا من اتّصف بهذه الصفات ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾. فهذا هو الفقه الذي أثنى على أهله وذكر فضلهم وخيريتهم في هذا الحديث «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وإذا طالعنا السيرة العملية والهدي المبارك والنهج القويم الذي كان عليه أصحاب النبي ﷺ في الجمع بين الأمرين، والحرص على العلم للعمل، والمبادرة إلى العمل فور سماعه، والمواظبة عليه بهمة عالية وعزم أكيد ورغبة صادقة؛ ندرك حقيقة الفقه في دين الله ﷻ.

وإذا وقفنا على بعض الأمثلة - والأمثلة في هذا الباب تطول - ندرك الهمة العالية التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم السباقون إلى كل خير في طلب العلم لأجل العمل، ومبادرتهم فور سماع العلم إلى تطبيقه وتنفيذه والمُسارعة إليه وعدم التخلّي عنه.

ومن ذلكم ما جاء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ رأى في يد رجل خاتماً من ذهب فنزعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وطرحه في الأرض، وقال: «أيعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده». ثم لما انصرف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال بعض الصحابة لذلك الرجل: خذ خاتمك انتفع به. أي: انتفع به بأنواع الانتفاعات المباحة، إما أن تبيعه، أو يكون لأهلك قال: والله لا آخذ شيئاً طرحه رسول الله ﷺ. مع أن أخذَهُ له استعماله له في وجه مباح؛ لكن نفسه عافت هذا الأمر؛ لأن النبي

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَرَحَهُ وَزَهَدَتْ نَفْسُهُ فِيهِ لَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ نَزَعَهُ مِنْ يَدِهِ وَطَرَحَهُ فِي الْأَرْضِ.

وَكَمْ يُرَى عَلَى النَّاسِ مِنْ مَخَالَفَاتٍ فِي الْأَلْبَسَةِ؟ وَيَسْمَعُونَ الْأَحَادِيثَ وَيَسْمَعُونَ الْوَعِيدَ وَيَسْمَعُونَ التَّهْدِيدَ وَتَطْرُقُ أَسْمَاعُهُمْ وَأَذَانُهُمْ أَحَادِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَرَّةً تَلَوْنِ الْأُخْرَى زَجْرًا وَنَهْيًا وَتَهْدِيدًا وَوَعِيدًا، وَيَمْضِي عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهِ وَكَأَنَّهُ لَيْسَ مَخَاطَبًا بِهَذَا الْأَمْرِ، لَا يُبَالِي؛ بَلْ بَعْضُ النَّاسِ يُجَادِلُ وَهَمَّتْهُ مَنْصَرَفَةٌ إِلَى الْجِدْلِ عَنِ الْعِنَايَةِ بِالْعَمَلِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ عَنْ هَدْيٍ كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجِدْلَ» ثُمَّ تَلَا آيَةَ الْكَرِيمَةِ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف] فَيَشْتَغِلُ بِالْجِدْلِ وَيَدَعِ الْعَمَلَ، وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ حَالُ مَنْ يَسْمَعُ الْحَدِيثَ وَالرَّغْبَةَ مَلَأَتْ قَلْبَهُ حِرْصًا عَلَى تَطْيِيقِهِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَبَيْنَ مَنْ يَسْمَعُ الْحَدِيثَ وَنَفْسُهُ مُتَفَلَّتَةٌ لَيْسَتْ رَاغِبَةً فِي الْعَمَلِ، فَالَّذِي يَسْمَعُ الْحَدِيثَ عَنِ رَغْبَةٍ فِي الْعَمَلِ هَمَّتْهُ وَقَلْبُهُ يَتَّجِهَ رَأْسًا لِلْعَمَلِ وَالتَّنْفِيزِ، أَمَّا الْآخَرُ الَّذِي لَمْ يَقُمْ فِي قَلْبِهِ رَغْبَةٌ فِي الْعَمَلِ يُشْغَلُ عَنِ التَّنْفِيزِ وَالْعَمَلِ بِالْجِدْلِ، وَيَبْدَأُ يَسْأَلُ أَسْئَلَةً تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ رَغْبَتِهِ فِي الْعَمَلِ وَعَدَمِ حِرْصِهِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ اتِّجَاهِ عِنَايَتِهِ لَهُ؛ فَيَبْدَأُ يُجَادِلُ مِثْلَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ إِذَا أُمِرَ بِأَمْرٍ وَلَا يَرِيدُ أَنْ يُنْفِذَ وَلَا يَرِغِبُ أَنْ يُنْفِذَ يَبْدَأُ يَسْأَلُ عِدَّةَ أَسْئَلَةٍ حَتَّى يَمْلَأَ مِنْ أَرَادَ مِنْهُ الْحَاجَةَ فَيَتْرَكُهَا، يَقُولُ لَهُ: أَحْضِرْ لِي مَاءً. تَرِيدُ الْمَاءَ بِالْكَأْسِ أَمْ تَرِيدُ الْمَاءَ بِكَذَا، تَرِيدُ الْمَاءَ بَارِدًا أَمْ حَارًّا؟ حَتَّى يَقُولَ: لَا نَحْتَاجُ.

وَهَكَذَا هِمَّةُ الَّذِي لَا رَغْبَةَ لَهُ بِالْعَمَلِ رَأْسًا هَمَّتْهُ تَخَوُّصُ فِي الْجِدْلِ، وَيَبْدَأُ يَسْأَلُ أَسْئَلَةً كَثِيرَةً مُحَصَّلُهَا وَمِفَادُهَا أَنَّهُ لَا رَغْبَةَ لَهُ فِي الْعَمَلِ وَلَا هِمَّةَ لَهُ، تَأْتِي لَهُ بِأَحَادِيثَ فِيهَا وَعِيدٌ تُخَوِّفُ وَتَهْزِ الْقُلُوبَ فَيَبْدَأُ بِالتَّخَوُّصِ فِي أَسْئَلَةٍ تَدُلُّ عَلَى زَهْدِهِ فِي الْعَمَلِ وَعَدَمِ رَغْبَتِهِ فِيهِ.

لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ يَقُولُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَدِيثُ فِي «الصَّحِيحِينَ»: كُنْتُ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ، كَانَ عِنْدَهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ خَمْرًا وَهُمْ جَالِسُونَ عَلَى مَائِدَةِ الْخَمْرِ وَيَتَنَاوَلُونَهَا وَيُدارُ عَلَيْهِمْ كَأْسُ الْخَمْرِ، وَنَفُوسُهُمْ أَلْفَتْ ذَلِكَ وَاعْتَادَتْهُ، لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ جَاءَهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ وَقَالَ: حَرِّمْتَ الْخَمْرَ فَرَأْسًا أَمَرُوا بِإِرَاقَتِهَا فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ بَدُونِ جِدْلِ، فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ أَمَرُوا بِإِرَاقَتِهَا وَكَسَرُ قَنَانِ الْخَمْرِ وَأَوْعِيَةِ الْخَمْرِ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ بَدُونِ جِدْلِ رَأْسًا هِمَّةٌ صَادِقَةٌ فِي التَّنْفِيزِ وَالْعَمَلِ.

جَاءَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ» وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اعْتَادَ مِنْ فِتْرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى الْحَلْفِ بِأَبِيهِ وَتَجَرَّى

على لسانه دائماً، يجري على لسانه دائماً الحلف بأبيه، ونحن نعلم أنّ الشخص إذا جرى على لسانه شيء واعتاد عليه لسانه إذا أدرك خطأ هذا الأمر وانتهى عنه ربما ينفلت من لسانه ذلك بعض المرات لكونه اعتاد على هذا الأمر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «من حلف باللّات والعزّى فليقل: لا إله إلا الله» -يعني تكفيراً- لأنهم اعتادت ألسنتهم فقد تأتي على اللسان عن غير قصد تنفلت من لسان الإنسان عن غير قصد؛ فعمر رضي الله عنه لما سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول: «لا تحلفوا بأبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله» قال: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله ينهى عن ذلك لا ذاكراً ولا آثراً -يعني لم أحلف بها لا من قولي ولا حكاية لقول غيري- بينما بعض الناس تُذكر له هذه الأحاديث والنصوص التي فيها أنّ هذا العمل شرك وأنه كُفر من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، وما جاء في ذلك من وعيد فتجده يمضي على حاله ولا يبالي، وبعضهم تجده يُريد أن يتخلص من ذلك؛ ولكنه يُغلب على ذلك، أو يغلبه التهاون وعدم الاكتراث بهذا الأمر.

ولهذا ممّا يُذكر في هذا المقام أنّ رجلاً ناصحاً شخصاً يحلف بالنبي، وحذّره من ذلك، وذكر له النصوص حتى فهم واقتنع، فلما اقتنع أراد أن يؤكّد لمن ناصحه التزامه بالأمر فحلف له بالنبي أنه لن يحلف بالنبي مرّة ثانية -على ما اعتاد عليه لسانه واستمرت عليه حاله.

ولهذا لما ننظر واقعنا وننظر واقع السلف نجد البون الشاسع في باب التطبيق حتى إذا نظرنا في السنن والمستحبات نجد فرقاً شاسعاً؛ همّة الصحابة رضي الله عنهم متّجهة للعمل اتّجهاً عجبياً.

جاء في حديث عليّ في «الصّحيحين» أنّ فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وعن عليّ وعن الصحابة أجمعين -، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله - تطلب خادماً فقال لها عليه الصلاة والسلام: «أو لا أدلّك على ما هو خير لك من خادم؟ إذا أويت إلى فراشك تسبحين الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين، وتكبرينه أربع وثلاثين» وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث أن ذكر الله تعالى يُعطي الجسم قوةً ونشاطاً لمباشرة الأعمال والنهوض بالمهام؛ ولهذا يذكر ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يجلس في المسجد إلى الضحى يذكر الله يقول: (فسألته مرّة في ذلك. قال: لو لم أفعل ذلك لخارت قواي) يعني: يضعف ويترهل بدني ولا أنشط، فالذكر يعطي الجسم قوة.

قال عليّ رضي الله عنه: ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله. انظر إلى المسارعة والمواظبة، منذ

سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله.

فأحد الحاضرين اختار ليلة عصبية وهي ليلة صفين التي دارت فيها رحى الحرب، ومن المعلوم أنّ المواقف الشديدة قد تجعل الإنسان يذهل عن الأمور التي اعتاد عليها وألفها؛ فلما قال علي رضي الله عنه: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ. قال له رجل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين. يعني تلك الليلة التي في مثلها قد يذهل الإنسان عن الأمور التي اعتاد عليها وواظب عليها، يقول: ما تركتها حتى في تلك الليلة -.

وهذا فيه أيضاً من الفائدة أن الأذكار يحتاج المقام فيها إلى مواظبة مستمرة وإلى عناية دائمة، ويحرص العبد ألا تفوته حتى يحظى بالثمار والآثار المترتبة عليها.

ولهذا مما يذكر في هذا المقام ما جاء في «صحيح مسلم» عن أبان بن عثمان لما روى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يصبح: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات، قال: لم يضره شيء»؛ فلما روى الحديث أبان إذا برجل ينظر إليه نظراتٍ فيها استغراب - لأن أبان كان مُصاباً بالفالج - الفالج مثل الشلل في جزء من البدن - فكان ينظر إليه نظرة استغراب ينظر إلى الجهة المُصابة في بدنه، وكأن نظراته تقول: لم يضره شيء! إذن ما هذا الذي أنت مُصابٌ به؟ فالحديث لم يضره شيء! فعرف نظراته، قال: لا تنظر، نسيته مرة ليُمضي الله في قدره، ولذا يحتاج الإنسان أن يُعنى بالمواظبة المستمرة ويُجاهد نفسه على ذلك.

القرطبي المفسر رحمه الله لما أورد حديث النبي عليه الصلاة والسلام: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله».

يقول: ما تركته منذ سمعته إلا أنني مرة كنت في المهدية - منطقة - يقول: فلدغتنى عقرب - نزلنا بالمهدية فلدغتنى عقرب - فذكرت أنني نسيته تلك الليلة، نسيته في ذلك المنزل.

من أمثلة المسارعة والمبادرة والمواظبة حديث أم حبيبة رضي الله عنها في «صحيح مسلم» قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «من حافظ على ثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة بنى الله له بيتاً في الجنة» قالت رضي الله عنها: فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ. وأيضاً عدد من الرواة في «صحيح مسلم» كل واحد منهم يقول بعد رواية الحديث: ما تركتها منذ سمعتها من رسول الله ﷺ.

وجاء في «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت - وهذا موضع الشاهد - أن «أوتر قبل أن أنام، وصلاة الضحى وصيام ثلاثة أيام من كل

شهر» قال: لا أدعهن حتى أموت.

وجاء نحوه في «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة السلف رضي الله عنهم حتى في صغار الصحابة عمر بن سلمة رضي الله عنه حديثه في «الصحيحين» يقول: كنت غلامًا في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت يدي تطيش في الصخرة؛ يعني لا تكون في مكان واحد في إناء الطعام وإنما يأخذ من هنا يأخذ من هناك-؛ فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك». قال رضي الله عنه كما جاء في «صحيح البخاري»: فما زالت تلك طعمتي بعد.

من صغار الصحابة غلام في حجر الرسول عليه الصلاة والسلام ومرة واحدة قال له النبي عليه الصلاة والسلام: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك» قال: فما زالت تلك طعمتي بعد.

ويتعب الآباء والأمهات في البيوت مع الأولاد في النهي عن المخالفة في الطعام أو في غيره؛ يا فلان، يا بني، مرات ويتكرر الخطأ، وعمر رضي الله عنه يقول: فما زالت تلك طعمتي بعد.

أيضًا إذا نظرنا إلى حال السلف:

الإمام أحمد صاحب «المسند» وهو موسوعة حافلة ومليئة بالأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول رحمته الله تعالى: ما سمعت حديثًا إلا عملت به، حتى لما بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحاجم دينارًا فاحتجمت وأعطيت الحاجم دينارًا. ويقول قيس الملائمي رحمته الله: (إذا سمعت الحديث فاعمل به ولو مرة تكن من أهله) مراده بالحديث المشتمل على السنن والرغائب والمستحبات، (اعمل به ولو مرة تكن من أهله) - يعني الحديث الذي فيه سنة من السنن - أما أن يزهد الإنسان في العمل كلفة ولا تكون همته متجهة إلى العمل؛ فهذا أمر لم يكن عليه السلف الصالح - رحمهم الله.

ولما أورد ابن القيم رحمته الله حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يكن بينه وبين الجنة إلا أن يموت»، قال: بلغني أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله قال: (ما تركتها عقيب كل صلاة).

والآثار والنقول عن السلف في هذا المعنى كثيرة جدًا.

ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يتجه للأمرين معًا للعلم والعمل، وأن يكون مقصوده بطلب العلم أن يعمل به، وإلا فإن العلم يكون حجة عليه لا له.

وقد سئل سفيان: (أيهما أحب إليك العلم أو العمل؟) قال: إنما يطلب العلم للعمل، فلا تطلب العلم

وتدع العمل، ولا تطلب العمل وتدع العلم). يعني اجمع بين الأمرين علم وعمل؛ هدى ودين حق.
 وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنی وصفاته العليا أن يُمّنّ علينا بالعلم النّافع والعمل الصّالح والرّزق الطّيب، أن يهدينا إليه صراطاً مُستقيماً، ألاّ يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادُنا، وأن يجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير والموت راحةً لنا من كل شرّ، وأن يُصلح ذات بيننا وأن يُؤلف بين قلوبنا، أن يهدينا سُبُل السلام، وأن يُخرجنا من الظُّلُمات إلى النور، أن يُبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا وأوقاتنا، وأن يجعلنا مباركين أينما كُنّا، ونسأله جلّ وعلا أن يُصلح لنا شأننا كلّهُ، وألاّ يكلنا إلى أنفسنا طَرْفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات .

ونسأله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يُعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سميع الدُّعاء، وهو أهل الرّجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والله تعالى أعلم وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم على عبده ورسوله نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

